القصص

من أساطير الأغريق

يو
أو
منشأ إيزيس

للأستاذ دريني خشبة

كان لأحد أرباب الأنهار التي تتحدر من شواهق الأولمب ابنةٌ بارعة الجمال فتّانة ، حلوةٌ كأنها قبلة على فمٍ حبيب ، رقيقةٌ كأنها زنبقةٌ على غصن رطيب

وكانت تخطر كما تخطر نسمةٌ معطرةٌ أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً ، ولتشيع في الحب سعادة ، ولترف في قيظ الحياة فتُروِّح على المكدودين المحزونين

وكانت هذه الفتاة (يو) ، مفتتنةً بجمال الطبيعة ، مشغوفةً بسحرها الأخّاذ ، تود لو تستطيع فتعيش ملءَ السهل والجبل ، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة ، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء ، ويمتزج بالظلال والأضياء

ولم تكن عاشقة ، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هدأةٍ من الليل ، يهيج حب الطبيعة في نفسها ، فتبكي ، وتبكي ، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغدران المترقرقة التي تنسرب في الأدغال . وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء ، وصاحباتها من بنات الغاب ، فكن إذا تفقدنها ، توزعن في نواحي الجبل ، وتفرقن في منبسطِ السفح ، وتنادين بها ههنا وههنا ، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قمرها المعبود ، تناجي البحر المصطخب ، وتكلم النجم المضطرب

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء ، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي) ، وما كاد يوغل في إحدى جنبات الجبل حتى لقي يو ، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة ، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع . . . وكانت السماء ما تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء ، وآراد[1] ذكاء تنتشر خللها فتفضّض أذيالها ، وتذهب أوساطها ، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً

وسُحر زيوس ، وهو كبير الآلهة ، بجمال العروس التي هي من خلقه ، وابنة أحد أتباعه ، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها ، وشعر كأنه ظمئ إلى هذا الجمال الفتان المشرق ، الذي كسف في عينيه جمال زوجاته جميعاً ، وفيهن حيرا وديون ولاتونا[2]

ووقف الآله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويُسمِّر مكانه ، وهو سيد الآلهة ، يعبد عَبْدته الصغيرة التي أبدعتها يداه . . . وهو لا يدري !

وعول على اغتنام الفرصة ، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره ألا يكون بريئاً ، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة . . . « أنا سيد أرباب الأولمب ، وكل ما بين لابتيك أبتها الأرض لي ، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني ! . . . ؟ »

ثم بدا له ألا يزجها بالظهور لها في سماء الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها ، لأنها ستكون منه تلقاء إلٰه ، فتحول في لمحة الى فتى يافع ينهل الشباب في برديه ، ويترقرق الصبى في أعطافه ، وتشع عيناه صبوة وفتوناً . وتقدم اليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة ، فحيت بأحسن منها ، ولقيته أرضى لقاء . . .

وجلس يحدثها ويحدثه ، وكان الآله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر ، ويزخرف صوته بالموسيقى ، ويعسل ابتساماته بالمحبة ،

(١) أشعة الشمس (٢) حيرا أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبولو وديانا (فويبوس وأرتميس) ولزيوس أزواج أخرى سنعرف بهن في كلة عن الثيوجونيه اليونانية

ويطلق فى نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى ، وكان ماينفك يقترب منها ويقترب ، حتى لامس ذراعه ذراعها ، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين ، وطفق يضغط قليلاً قليلاً ...

وصمتا هنيهة . . . ثم فرغ طور اللسان ، وبدأت نوبة العين ، وأخذا فى رشفات وقُبل . . .

وعاد أدراجه الى الأولمب ، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التى سعد فيها لحظة بيو ، وظل منذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التى تبترد بها غلته ، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها ڤينوس به ، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب ...

وكان يتحرّق إلى لقائها ، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضى ، فاذا سعدت منه بزورة ، اندغمت عبادتها للطبيعة فى عبادتها له ، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها !

وأحست حيرا ببعض ما يشغله ، ولحظت أنه صادف عنها ، فأيقنت أن لا بد من أمر ، وأن فى الأمر أنثى ؛ وأن فى الأنثى صبابةً وغراماً ؛ فبثت العيون ورصدت الرقباء ، حتى وقفت من شأنه على كل شيء !

ولشد مادارت الدنيا بحيرا ! لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو ! ! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دِهاقا ، لكيلا يكون لبعلها على خيانته حجة ، ولكيلا يكون له من بعدها برهان

* * *

وذر قرن الشمس فى صبيحة ضاحكة ، فذهب زيوس يشفى مافى قلبه من برْح عند يو ، وكانت حيرا قد أوهمته أنها ستقضى سحابة يومها هذا عند واحدةٍ بعينها من صديقاتها ، وزاد ذلك فى ابتهاج الآلـه ، وضاعف انشراحه ، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر لدى يو

وإنه لفى لَهْو النشوة وإبان السكْرة وعنفوان المرح ، إذا به يلمح حيرا مقبلة ! . . .

وكانت ما تزال فى أول الأفق ، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لتفجأه مع يو ، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ فى كتمانه . فتناول أذن صاحبته فنفث فيها نفثة سحرتها فى أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة ، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها . . .

ووصلت حيرا ، ولم تنطل عليها حيلة الآلـه ، وما شكّت قط أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها فى الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلأ ، إن هى إلا يو . . ! عدوتها اللدود ! !

فبسمت لزوجها بسمة كلها دلٌّ وكلها فُتون ، وسألته ، وهو يحاول منها قبلة ، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التى . . : « لم أر فى حياتى أرشق منها ولا أجمل . . لقد أحببتها ، وهى من غير ريب ، حين تكبر ، ستعطينا أجود الابن وأسلمه ، وسيكون لبنها خير غذاء لولدَينا الحبيبين إيرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب (١) . . . »

وارتبك زيوس ، ولم ير بداً من إجابة زوجه إلى ما تريد . .

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد اتباعها الأقوياء : آرجس الهائل ، ذا مائة العين التى لا تنام ! ناطته بها ، وأمرته ألا يغفل عنها ... « وإلا فالويل لك يا آرجس إذا هربت منك ، أو احتال أحد عليك يخلصها عنك . . . إذن يحل عليك غضبى ، وأسحقك سحقاً . . . »

وظل الحارس الساهر يرعى يو ، ويرقب كل حركة من حركاتها ، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبها ، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذى ردها بعد جمالها إلى هذا الخلق الشائه ، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم . لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة ، ولكن كيف ؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السُّهد وأعياه السهر ، ينام بخمسين عيناً ، ويقدح الشرر بخمسين أخرى ! ! فاذا استيقظت هذه نامت تلك ، وهكذا دواليك ، حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها ! وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها ، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن ، ولكن . . . هيهات ! لقد كانت . . مو . . مو . . تنطلق من فمها الكبير مالئة أشداقها ، فتنزعج أيما انزعاج !

ومضت أيام . . . وأيام . . .

ثم لقيت أباها مرة ، فنظرت اليه وهو ينكرها ، ونظرت ، ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها ، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات ! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته ، فلم يأبه لها !

(١) إيرس هو مارس الرومانى إله الحرب ، وهيفيستوس هو ڤلكان الرومانى إله النار ، وهيب هى ربة الشباب وندامة الشراب ، وحاملة الكؤوس فوق الأولمب

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها ، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد ، فلما قرأ مارقشته فى أديم الرمل ، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان ، ثم عانقها عناقاً طويلاً ! ولكنه أسقط فى يديه ! إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع فى سحر الآلـه الأكبر ! ؟

ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ، ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها ، تأثر تأثراً بادياً .. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً . ثم ذكر وعيد حيرا ، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق ، ونمة ، تخير يفاعاً عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شئ ، فلا يخشى على بقرته رهقاً ، ولا تستطيع هى مهرباً

* * *

وذكر زيوس فتانه المسكينة التى كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها ، وذكر تلك الأويقات الحلوة التى يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة ، التى لم يتيسر له مثلها فى مملكة الأولمب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم ، فثارت فى قلبه عوامل الرحمة ، وتحركت فى صميمه تلك الشفقة الآلهية التى اتصف بها فى قديم الآباد

وفكر وفكر . . . ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا ، البطل الطيار المشهور ، هرمز ، وأمره بالتوجه إلى حيث آرجس فيحتال عليه ويقتله

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التى جلس فوقها آرجس ، فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة ؛ وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل ، وكان البدر يتنقل فى دارات السماء ، والرياح تهب سجسجاً ، والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح فتطرب وتشجى ؛ وكأن سنةً من النوم خفيفة رقصت فى خمسين من عيون آرجس فأطبقت قليلاً ، ولكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا بريقها ؛ وكانت البقرة ملقاة على الثرى الندى من الاعياء ، فلما شهدت هرمز لم تحفل به

ولكن ما هذه الموسيقى الحنون ! !

ومن العازف فى هدأة الليل !

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب ؟

آه . . لقد تحول هرمز الصناع إلى شاب ذى قوة وذى فتوة وذى جمال ، وبدا فى شكل راع من رعاة الضأن ، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس ، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذى اتخذه من قصب البرية الفسيحة التى أقبل منها ، وانبطحت فى السفح شاؤه و نَعَمه [1] تغط فى شبه نوم عميق ...

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون آرجس ، ودب النشاط فى هيكله الضخم مما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن ، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز — الراعى الفنى — فلم عليه وصافحه . وجلس بين يديه كالنز يسمع ويطرب وينتشى ، ثم أخذ معه فى حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة ، ثم استطرد فسأله عن نايه ، من صنعه ، أو من ذا الذى وهبه له ؟ . . .

فقال هرمز : « فى إحدى الغابات ذات الأيك البالغ عنان السماء ، والدوح المنتشر فى الأرجاء ، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة ، ذات السيقان الناعمة ، والجسم الأبيض الخصب الجميل . وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها ، وتؤثر منها الجرى والوثب والقفز ، والتعلق بأطراف الشجر ، ثم السباحة . وكانت تجرى فتسبق الريح ، وتعدو فيتعثر الظليم فى آثارها ، ولا تدرك الصافنات غبارها . وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها ، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة ، ثم تنطلق فتلحق بهم ، وتسبقهم بمراحل ! . . . »

وتثاءب هرمز الخبيث وقال : « ومن طريف ما حدث لها ، أن پان العظيم ، رب الرعاة وإلـه المروج وسيد الغاب ، ومعبود الناس فى أركاديا ، لمحها يوما تعدو وكأنها زوبعة ، فتبعها ؛ ولكنها شأته [2] وأجهدته ! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق فى الجرى ، وحاول أن يلحق بها ، فضاعف سرعته وأطال خطواته ولكن هيهات ! . . . والتفتت سيرينكس فرأته يطوى أديم الأرض من خلفها . ففزعت أيما فزع ، وهالها منظره الشائه الغريب . . . فسيقانه المعزية الأربع ، وأذناه البهيمية الشاخصة ، وجسمه المفتول ذو العضل ، ووجهه الواسع العريض . . كل ذلك بعث فى قلبها الذعر ، وهاج فى نفسها الرعب ، حتى كادت تذهب شعاعا . »

(١) الشاء جمع شاه والنعم يطلق على الأبل
(٢) شأته سبقته

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة ، ثم قال : « . . واعترضها نهر عظيم فصرخت فى أخواتها عرائس الماء تستغيث بهن ، وتطلب اليهن النجدة ، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبها فى اليم ، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن يرى قصبات رقيقة ، ذوات أرياش صفيقة ، تنمو فى الموضع من الماء الذى غيبت فيه سيرينكس ! !

ووقف بان مشدوه اللب ، ذاهل الفكر ، يحملق فى النهر الذى طوى منية القلب ، وهوية النفس ، ثم انثنى فنزع القصبات النامية ، وراح يصنع منها نايا حلو النغم رقيق اللحن ، حنون الجرس

ولقيته مرة فى روضة مونقة ، منضورة منسقة ، وكان بان يجلس على رابية بها ممشوشبة ، عازفا على يراعه ، فطربت لموسيقاه طربا شديداً ؛ ودلفت إليه ، فرجوته أن يهب الناى لى ، فتبسم قائلا . « إليك يا بنى أكرم القنى وأعز الذكريات ...»

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه ، حاول أن يخفيها عنى ...

وكان هرمز وهو يلقى هذه الأقصوصة التى اخترعها اختراعا ، يحاول أن يعطها معطا ، ويزيد فى ثناياها حواشى مملة ، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها . وكان يتثاءب ويتثاءب ، وكانت الكلمات تتساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد ، حتى تثاءب آرجس هو الآخر ، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها . وابتهج هرمز الخبيث لذلك ، وجعل يروح على وجه آرجس ، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير تجاوب أصداءه الضفادع ... !

وهنا ... امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل ، فانفصل الرأس عن البدن ، وغادرها معفرين بالتراب ، وعاد أدراجه إلى الأولمب يحمل إلى والده نبأ المعركة ...

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن وأشده ، وذهبت بنفسها فحملت رأسه إلى مخدعها فى قصر الأولمب الكبير ، وطفقت تسمل العيون عيناً عيناً وتركبها فى ريش طاووسها [1] الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له ، ووفائها لذكراه ... ثم آلت لتسلطن على يو — البقرة السكينة — ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة ، تقرصها وتجعل من حياتها نكالا ، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس ... كبير الآلهة ، ورب الأرباب : « يا إلهى العظيم الرحيم ! يا أبا الآلهة ، وابن الآلهة ! أتوسل اليك بأبنائك الكرام الرحماء ! أدركنى يا أبا زجريوس ! اغفر لى زلتى حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبنى ! إن كنت قد صنعت بى ماصنعت انتقاما ، فحسبك ماحل بى من عذاب الهون ! لن أزل يا إلهى إذا غفرت لى ورفعت عنى وزر غضبك ! اقبل يارب الأولمب صلاتى واجعلها شفيعى إليك ! أنا ... يو المسكينة .. كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر ، فكنت أنزوى عن العالم ، وألبث وحدى بين يدى قمرى الحبيب ، أصلى لك ولابنتك المعبودة ، فى هدأة الليل ، وسكون السحر ، فما هو إلا أن قطع على هذا الفتى صلاتى ، وهو من خلقك ، وجماله الفتان آية من آياتك ، فاذا سحرنى وأذهلنى عن عبادتى ، فانى أستأهل كل هذا الذى أنا فيه ! ... يا إلهى اغفر لى ، فقد وسع غفرانك كل شىء ... ! »

ويستجيب الآله لهذه الصلاة الحارة الخالصة ، فينطلق إلى حيرا ، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه ، فيواسيها ويسليها ، ثم يرجوها أن ترحم يو ، وأن تخفف عنها العذاب ، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى . فترق حيرا ، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها ، فى قلبها ؛ وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة وتأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى ... الصورة القديمة المحبوبة ... ! ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض ، حتى تطمئن عليه ... وعلى قلبه المتصابى ! ... من حبها

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى ... ... ضفاف النيل ! ! وتخرج من الصحراء فيلقاها المصريون ؛ فتبهرهم بجمالها الرائع ، وحسنها الوضاء ، ومفاتنها البارعة ، ثم يجتمعون على عبادتها ، ويقيمونها مليكة عليهم ، ويسمونها : « إيزيس »

وتمر الأيام ...

فيتزوجها كبير آلهة مصر ، آزوريس ، وتلد له ابنه حوريس ! [1]

دريني خشبة

(١) كان الأغريق يرمزون لحيرا بالطاووس والسكوكو وكانوا يحبونها حبا جما لأنها آثرتهم بعطفها وصحت فى سبيلهم بحب زوجها وتفننه فيها — واسمها الرومانى هو جونو

(١) فى هذا تناقض لما هو معروف فى الميثولوجية المصرية ، ولا نعرف منشأ هذه الاسطورة التى تمتاز من كل أساطير اليونان بما أثبتته من علاقات مصر القديمة بهيلاس